المقاومة بالقلم إبّان الاحتلال الفرنسيّ

Resistance By Pen During French Colonization

محمد حراث *

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشّلف (الجزائر)، momo.adab@gmail.com

تاريخ الوصول2022/01/01 تاريخ القبول 2022/01/23 تاريخ النشر2022/03/31

الملخص:

لم تُلقّب الجزائر بأنّها بلد الثّوّار اعتباطًا؛ وإنّما لأنّها قدّمت ثورةً صارت الأنموذجَ ومضرِبَ المثَل في التّحرّر والمقاومة. هذه الثورة العظيمة التي ألهمت الشّعراء والأدباء والكُتّاب أنفس ما جادت به قرائحهم، هذه الثورة التي رافق فيها صريرُ القلم دويَّ المدافع، فاندفعت أمواج الدّم والحبر في تناغم بين من يستشهد ومن يخلّد، وبين من يسقط ومن يخطّط. وبين نَيْر الحتوف ونور الحروف ولدت هذه الثورة من جديد في شتّى الروايات والدواوين والمسرحيات والدّرامات والفنون. فكانت الكلمة ترافق الدم، وكان القلم خدين السّلاح. وكما قام الجنديّ في الجبال بدوره، فالصّحفيّ في الإذاعة والجريدة كان مجاهدا، والطفل والعجوز في الحكايا والأغاني كانا يجاهدان، والشاعر الفصيح والشعبيّ لم يدّخرا جهدا، ولم تتوانَ حلقات الزوايا، وحلقات الأسواق في المقاومة بالكلمة. ولولا هذا الانسجام لما تحقّق المأمول، ولما خلّدت الثورة نفسها، ثورة كان عنوانها: الله أكبر قبل كلّ رصاصة، وكأنّي بالمجاهد لم يشأ أن تفارق الرّصاصةُ الكلمة. لذا فتحاول هذه المقالة أن تستجليَ دور الكلمة في المقاومة، هذه الكلمة التي راحت ضحيةً لها أرواحٌ كثيرة، بين السّجن والنفي والإعدام. لكن كلّ هذا لم يكن مانعا عن تخليد الثّورة بأجمل النّصوص الشّعريّة والنّثرية، التي لولاها لاندثرت أمجادنا الثّوريّة؛ إذْ أصبحت هذه النّصوص فيما بعدُ سِجِلاًّ تاريخيًّا حافلا.

الكلمات المفتاحية: القلم – الكلمة – الثّورة – المقاومة – الشعر – الأدب.

Abstract:

Algeria's revolution was not limited to arms, but she was accompanied by weapons, and the word was instrumental in resisting the French occupation of Algeria. Just as the soldier in the mountains was facing the French army with arms and bullets, the Algerian poet, sheikh and teacher in schools resisted by the pen, resisted the ignorance imposed by the occupation on the Algerians. After independence, their writings were the historical record of the events of the glorious Algerian Revolution

Keywords: Pen –word – revolution – resistance - poetry - literature.

1– مقدّمة لا بدّ منها:

لم تقتصر عظمة ثورتنا في أنّها قدّمت من التضحيات ما لم تقدّمه ثورة أخرى، ولم تكن روعتها كذلك في أنها بدأت من العدم، بيد شعب أعزل، وإنّما تجلّت عظمتها حين أصبحت الثورةَ المثل، الثورةَ الأنموذج، وأصبحت لقبا لهذا الوطن، بلد الثوار، بلد المليون ونصف المليون شهيد.

* المؤلف المرسل

ولا يعرف قيمة الموجود إلا من عانى من ألم المفقود، كان حلم الجزائري أن يقول بملء فيه: أنا جزائري. أن ينظر بكلّ حرّية إلى علم بلاده دون أن يضطر ليخفيه عن ضوء الشّمس، كانت كلمة الجزائر جريمة، بل أزهقت أرواح من أجل هذه الحروف الخمسة.

هذه الثورة العظيمة التي ألهمت الشّعراء والأدباء أنفس ما جادت به قرائحهم، هذه الثورة التي رافق فيها صريرُ القلم دويَّ المدافع، فاندفعت أمواج الدّم والحبر في تناغم بين من يستشهد ومن يخلّد، وبين من يسقط ومن يخطّط. ثورة تجاوزت الحدود والمحدود، فصار لها حضور حتى في غير زمانها، وفي غير مكانها، وبغير لسانها، ثورة شهد لها البعيد قبل القريب، والعدوّ قبل الحبيب.

فبين نير الحتوف ونور الحروف ولدت هذه الثورة من جديد في شتّى الروايات والدواوين والمسرحيات والدرامات والفنون، تحكي قصّة شعب قرّر أن يعيش، فمات، فعشنا، شعب قدّم وضحّى فاعترف له العدوّ مكرها بمليون ونصفه من الشهداء، اعتراف يكفينا لنتأكد أنّ الحقيقة ضعفُ هذا العدد أو أضعافُه، فلسنا ننسى شيئا يسمّى: المجازر الجماعية، التي لا تسمح لنا اللغة أن نحصرها في لفظة تمييز العدد: عشرة أو عشرون، وليس من المجاز أو الانزياح حين نقول: ماتت القرية الفلانية، في الجزائر: كانت قرى تباد وتمحى بضغطة زناد، لينتقل الوجود إلى رماد، لقد كنّا نموت بعدد حبّات الرّصاص في أسلحتهم، وبحجم اتّساع حضن قنابلهم، ولكن لحسن الحظ أرواحنا كانت أكثر عددا من رصاصاتهم، لكِ الحقّ يا جزائر، إن قلتِ أنا الجزائر.

كانت الكلمة ترافق الدم، وكان القلمُ خَدينَ السّلاح. وكما قام الجنديّ في الجبال بدوره، فالصّحفيّ في الإذاعة والجريدة كان مجاهدا، والطفل والعجوز في الحكايا والأغاني كانا يجاهدان، والشاعر الفصيح والشعبيّ لم يدّخرا جهدا، ولم تتوانَ حلقات الزوايا، وحلقات الأسواق في المقاومة بالكلمة. ولولا هذا الانسجام لما تحقّق المأمول، ولما خلّدت الثورة نفسها، ثورة كان عنوانها: الله أكبر قبل كلّ رصاصة، وكأنّي بالمجاهد لم يشأ أن تفارق الرّصاصةُ الكلمة.

2- الثّورات/ المقاومات الشّعبيّة تنطلق من الزّوايا:

مخطئ من قال إنّ التّصوّف هو النزوع إلى الكسل، والتمايل، الخمول، والبطالة، والفرار من معترك الحياة، بل إنّ هناك صلةً كبيرةً بين التّزكية الرّوحيّة، وبين البطولة، والكفاح، فكل تلك القوة المعنويّة التي يحتاجها للتّضحية، والفداء، وبذل الأرواح والمهج، من إخلاص وحنان، وعاطفة، وربانيّة "لا تنشأ ولا تظهر –في أغلب الأحيان– إلا بعد صفاء الرّوح، وتهذيب النّفس، والرّياضة والعبادة"[1].

ونظرةٌ عامّة على الذين قادوا الثورات، وأشعلوا فتيلها في الجزائر، تكشف أنّهم كانوا قادة روحانيين قبل ذلك، كيف لا ومنهم الأمير عبد القادر الجزائري، وسيدي أحمد الشريف السّنوسي، والشّيخ الحدّاد، وغيرهم كثير. إنّ هذه الرّياضة الرّوحية، والتّزكية النّفسيّة، تعمل عمل السّحر في النّفوس، وتدفعها إلى التّضحية بأسمى معانيها، من أجل المبادئ التي تؤمن بها، أو المقدّسات التي تقدّسها، وما الوطن إلا إحدى هذه المقدّسات، إنْ لم يكن أقدسها.

فإنّ التّحضير للمقاومة/ الجهاد يحتاجُ شحذًا للهمم، وترسيخا للإيمان بالقضيّة قبل الولوج في المعارك، فلن تكون التّضحيّة في أكمل وجوهها إلا إذا عمِلت الكلمة في القلوب مفعولها السّحريّ، فتنطلق الأبدان تلبيةً لنداء القلب/ الرّوح.

وها هو ذا الأمير عبد القادر كان من أشعل شرارة الثّورة الأولى، وأقضّ مضجع الفرنسيين من عام 1832 إلى عام 1838، ويشهد التاريخ، والأعداء قبل الأصدقاء، بشجاعته وبطولته وعدله وعلمه وفضله، وهو في الوقت نفسه الذي كان فيه قائدا مغوارا، كان شيخ طريقةٍ، عابدا، متصوفا، متضلّعا في العلم، ساميا في الفكر، حتّى أنّه ألّف كتابه (المواقف) في التّصوّف، ويقول[2] من درسوا حياته، وخبروه وقاربوه إنّه كان كلّ يوم يقوم الفجر، ويصلّي الصّبح في مسجد قريب من داره في محلة العمارة، لا يتخلف عن ذلك إلا لمرض، وكان يتهجّد الليل، ويمارس في رمضان الرياضة على الطّريقة الصّوفية، وما زال مثالا حديثا للبرّ والتّقوى، والأخلاق الفاضلة، إلى أنْ توفّي رحمه الله سنة 1883م.

لقد كان للجمعيات الصّوفية دور مهم في إحداث المقاومة، سواء في الميدان الديني، أم الاجتماعي، أم السياسي، ولما انهزم المقاومون أمام الترسانة الضخمة التي دعّم بها الجيش الفرنسي زاد ارتماء المواطن الجزائري في أحضان الصوفية؛ ليعيش في عالم الروح والتخيلات، لعلّه يجد الخلاص على أيدي الشيوخ المتصوفة، وكان بعض المتصوفة من شيوخ الزوايا مع ذلك يحملون رايات الجهاد، ويرفعون شعلة الحماس.

والواقع أنّ الفرنسيين حاولوا استغلال الطرائق الصّوفية لصالحهم منذ البداية، لمعرفتهم لخطرها في توجيه النّاس، إلا أنّ بعض الطرائق كانت تعلن الجهاد جهارا، ومنها الطريقة الرحمانية، التي تحالفت مع الأمير عبد القادر وبايعته على الجهاد إلى أن انهزم سنة 1847م، ثمّ واصلت بعده المقاومة والجهاد إلى 1871م.

3- الشّعر يرافق السّلاح:

كان الشّعر منذ القديم ديوان العرب، وناقل تاريخهم، وسجلّ مآثرهم، ولسان حالهم. رافق الإنسانَ العربيّ في ترحاله ومقامه. وعاش الجزائريّ كغيره مع الشّعر فصيحا كان أو شعبيا/ ملحونا، فعبّر به عن أفكاره ودافع عنها، فمفدي زكريّا الذي كتب رائعته في أحمد زبانا بالدّمّ في جدران زنزانته، أصبحت قصيدته (الذّبيح الصّاعد) هي المرجع التّاريخي التأريخيّ لحادثة السقوط إلى الأعلى، وزادَتْ مكانةُ مفدي علوًّا بعد تخليد (قسما) نشيدا للجزائر يتناقلها جيل عن جيل، وما كان ذلك إلا عن إيمان منه بأنّ الكلمة ستبقى خالدةً بعد أن تنفدَ ذخيرة السّلاح. فإنّ ذخيرة الحبر متجدّدة مستمرّة.

فالشّعر خاصّة والأدب عامة كان الدّاعم الرّوحيّ للثّورة الجزائريّة، وكان بعد الثّورة سجلًّا مخلّدا لبطولات الشّعب الجزائري، فدعونا نُنيخ رحالنا بفناء الأمير عبد القادر، في قصيدته (بنا افتخر الزمان) إذْ يسجّل فيها مآثر شعبه تحفيزًا وتشجيعا، جاء فيها:

لنا في كلّ مكرمةٍ مجالٌ *** ومن فوق السّماكِ لنا رِجال

ركبنا للمكارم كلّ هولٍ *** وخُضنا أبحرا ولها زجالُ

إذا عنها توانى الغير عجزًا *** فنحن الرّاحلون لها العِجالُ

سوانا ليس بالمقصود لما *** ينادي المستغيثُ: ألا تعالوا

ولفظُ النّاس ليس له مسمّى *** سوانا، والمنى منّا يُنالُ

لنا الفخر العميم بكلّ عصرٍ *** ومصرٍ، هل بهذا ما يُقالُ؟

رفعنا ثوبنا عن كلّ لؤمٍ *** فأقوالي تصدّقُها الفِعالُ

ولو ندري بماء المزن يزري *** لكان لنا على الظّمأِ احتمالُ

لئن يقف الرجل في ساحة الوغى، وميدان الطِّعان، ويحمل في الوقت نفسه محبرته، ويشهد اللقاءَ العزيز بين قرطاس ويراع، تدبّجه حركات البَنَان، لتولد كلماتٌ، وتخاط بالكلماتِ أشطرٌ وأبياتٌ، فذاك الأمر الذي لا يطيقه إلا أميرٌ، هو الأمير، ولا يَسْطِيعُ إتيانه إلا عبدٌ قادرٌ هو عبد القادر، كلماتٌ مصطفّةٌ كأنها رجالاتٌ صناديد، كلّ كلمة تعبق بالرجولة وتفوح بالعزّة، وتتضوّع بالكرامة، وتأتلق بنور الإيمان، وتتّقد بضياء الإخلاص لله ثمّ لهذا الوطن، الذي أحبّه بجباله وأنهاره، وتلاله وأغواره، وهوائه وبحاره، وذرّاته وأسراره. إنّه عرِفَ للكلمة قَدْرَها ومِقدارَها، فأرفَقَ الرّصاصَ الحروف، وأتبعَ البُندُقيّةَ القصيدةَ. فترافقا وتصادَقا.

(لنا في كلّ مكرمةٍ مجال) شطرٌ أنْ يأتي به غيره محال، اللفظة (لنا) تحمل من الفخر والاعتزاز بالنفس أطنانا وأوزانا، والتي لا يقولها إلا المنتصر، وكأنّنا به يؤكّدُ لنا ذلك فيعيدُها: (ومن فوق السّماكِ لنا رجال)؛ مستخدما في هذا البيت كلمات قويّة، وإيجابية، تراه مستخدما لفظة كلّ دون بعض، ومكرمةٍ دون غيرها، وقد أتى بها نكرةً وكأنّه يقصد كلّ مكرمة، مهما عظمت أو صغرت، إحدًى بإحدىً، ومستخدما لفظة فوق الدّالة على العلوّ، ولفظة رجال في حالة جمع كثرة، وهل يزهو الرّجل إلا بالرّجال، ونِعْمَتْ رجولة. وقد كان للتقديم والتأخير في هذا البيت معنى جليلٌ، فالعرب لا تقدم إلا الأهمّ، ولا تأخر إلا ما تريد أن تجعله منتظَرا؛ ليحصل بذيّاك التأخير تشويقٌ وارتقاب.

ركبنا للمكارم كلّ هولٍ *** وخضنا أبحرا ولها زجالُ

ينتقل بنا الأمير إلى بيتٍ آخر، ويجمع ما أفرده من (مكارم)، ويمتطي لها ما قابلها من (هول)، ليسلك مع تنكير (هول) ما سلكه مع (مكرمة)، وكأنّ كلّ (هول) وحده يفرد له ذلك التّحدّي، شجاعةٌ وإباءٌ جعلاهُ يخوض (أبحرًا) وليس بحارا فقط، فلم يكتفِ بجمع قد يقتضي مئة بحر ليرتفع بالجمع إلى جمع كثرة، يقتضي ألف بحر أو يزيد، ولتكون لفظة (خُضنا) صورةً ترسم ذاك العبور الوعر الخطير، والمجازفة الضخمة التي تصورُها خشونة الخاء، وضخامة الضاد واستطالتها، وتُلبِسُها نون الجمع المفْتَخِرَةُ لباسَ الشجاعة والإقدام، ولم يكتف بالبحر وحده دون وصف، فقد (أزجل) البحار من بعد أنْ ركب الأهوال، وأهمّ ما ميّز هذين البيتين السالفين كثرةُ حروف الجر وحروف العطف، وعوامل الربط الأخرى كالإضافة؛ دلالةً على رغبته في جعل هذه الكلمات وما تحمله من دِلالات ومعانٍ، متماسكةً مترابطةً، وذلك ما تفعله حروف الرّبط وهذا ما سيرافقه إلى آخر الأبيات.

إذا عنها توانى الغير عجزًا *** فنحن الرّاحلون لها العجالُ

في ذا البيت يقرّرُ أمرا يقينيّا، وهذا ما تفعله الأساليب الشّرطيّة، فجاء بـ(إذا) الشّرطيّة وجملة الشرط التي إنْ حصلت وحصل من الناس تقاعسٌ في الذود عن المكارم، وخوض المغارم، جاء الجواب تقوده الفاء، وتربطه بالحدث السابق، وتُصَوّر الأمير الذي لم يكتف بانتظار الأهوال، وإنما بادرها راحلا إليها، وما سكنت عاصفة البلاغة لديه، إلا لتصور عجلة الأمير، وكأنه أحب الأهوال، لا أنْ يخافها، ويبادرها لا أنْ تبادره، ولا يُعَاجَلُ إلا إلى المحبوب، وما نلحظه في المقابلة بين كلمتي: (توانى) و(الراحلون)، هو أنّ التّواني صفة لذاك الغير/ السِّوى، والرّحيل في عجل إلى الأهوال من شيم الأمير وقومه، فعبّر عن خُلُق غيره بالفعل الدّال على الحركة، وكأن التواني منهم صفة تتحرك معهم أينما تحركوا، ترافق كل أفعالهم، ولا تُنْتَظَر منهم هبّةٌ إلى المكاره، ولا رحلة إلى الأهوال. ثمّ يعبّر عن نفسه وقومه بلفظة (الراحلون) و(العجال)، وكأن الاسم الذي يدلّ على الثّبات وعدم التغيّر، أثبتَ أنّ هذه الصّفة فيهم راسخةٌ ثابتةٌ لا تغيّرها المصائب، ولا تبدّلها النّوائب، وكانت (العجال) بعد (الراحلون) وصفًا لها، وكأني بالأمير ما اكتفى بالرحلة إلى هاتيك الأهوال، وإنما كان عجلا في أَمِّهِ إلى تلكم المكاره.

وما يمكن أنْ نلاحظه فيما سبقنا من أبيات لازمة صوتية؛ وهي تَكرار الألف المدّية والتي تطلق معها إلى الأعلى كمًّا من الهواء، لا يعبّر بذلك إلا من بلغ ذروة الفخر، وذؤابة الاعتزاز بالنّفس، ومثاله: (لنا، مجال، السّماك، لنا، رجال، ركبنا، للمكارم، خضنا، لها، زجال إذا، عنها، توانى، الراحلون، العجال)، وهذه اللازمة الصّوتية –إنْ التّعبير صحّ– أن نسمّيها كذلك، سترافق الشّاعر إلى آخر قصيدته.

سوانا ليس بالمقصود لما *** ينادي المستغيثُ: ألا تعالوا

نراه في ذا البيت الأكثر من رائع، والأجمل من بديع، قدّم ما حقّه التأخير، قدّمه على صورةٍ لا يجب إلا أنْ تكون عليه، فكان الأصل أنْ تتأخر (سوانا)؛ ذلك أنّ (ليس) لها حقّ الصّدارة –من حيث الأصل لا من حيث الوجوب– وقد قدّم (سوانا) المنفية بما بعدها؛ لينفيَ المسألة قبل أنْ يشرحها، وليقطعَ حَالِكَ الشّكّ بساطع اليقين، أنَّهُ ليس من منجد، ولا مغيثٍ ولا معين وقتذاك سوى الأمير وجنوده. ونراه حاول التأكيد أيضا بالباء الزّائدة في قوله: (ليس بالمقصود)، ذلك أنّ من معاني حروف الجرّ الزّائدة التوكيدُ.

كما نرى بلاغة الحذف، وبراعة الإيجاز، وبداعة الاقتضاب، في الشّطر الثاني من البيت: (ينادي المستغيثُ: ألا تعالوا)، ذلك أنّ الأربع كلمات هاته، لا توكّد أربع معانٍ فقط، بل وكأنّها تحكي قصّةً كاملة، لحالة المستنجد المستغيث وهو ينادي ويستغيث استغاثة مستمرة متكرّرة، دلت على ذلك استمراريّة الفعل المضارع (ينادي).

ويستمرّ الأمير في موازناته ومقارناته، بينه وما يتّصف به من شيم وخصال، وبين غيره ممن تنكبوا عن الانتصار لهذا الوطن، وما يتّصفون به، ويقول في البيت الخامس:

ولفظُ النّاس ليس له مسمّى *** سوانا، والمنى منّا يُنالُ

بيتٌ بغضّ النّظر عن معناه، وفحواه، ومغزاه، يُنمّ ويدلّ على إحاطة الأمير بالعربيّة وعلومها فلم يكن رجل سيف فقط، بل كان عالما مصلحا، ومتصوّفا زاهدا، ولغويا مفوّها، وخطيبا بليغا، وشاعرا مِصْقَعا، بعد أنْ كان للجيوش قائدا، وفي الحروب رائدا، وفي المعامع سائدا، وعند المصائب أجلدا، ويوم العطاء أجودا، وعند العجز رافدا.

وقد استعمل في مقارناته الافتخارية هاته لفظة النّاس، وكأنّ وما تحمله لفظة (الناس) من استغراق شاسع، بلغ بذلك ذروة الفخر، مقارنا بينه وبين الناس جمعا، نافيا في الوقت عينه أنْ يكون (النّاس) إلا هو وقومه، وليعبّر أيضا على أنّ الأماني منهم جازمة التّحقيق، واجبة النّوال، جاء بالفعل المضارع المبني للمفعول (يُنال)، وكأنّه لا يهمّ من كان المتمنّي من قومه صغيرا أو كبيرا، فالأهمّ أنّها تتحقّق، دون أنْ ننسى اللازمة الصّوتية التي لا تزال ترافقنا والمتمثّلة في الألف المدّية التي تتكرّر في البيت الواحد أكثر من خمس مرات، مع كثرة حروف الربط التي حاول من خلالها الأمير ربطَ معانيه بربط مبانيها، فاستدعى ربطُ المباني ربطَ المعاني.

لنا الفخر العميم بكلّ عصرٍ *** ومصرٍ، هل بهذا ما يُقالُ؟

هنا يعود الأمير مرّةً أخرى إلى لفظة (لنا)، هذه الكلمة التي يقدّمها ويجزم بها امتلاكه أمرا يكون مجهولا من قبل لدى السّامع، وتذكرنا هذه اللفظة بشاعر مفخار، وبطل مغوار عمرو بن كلثوم في قصيدته ونونيته الافتخارية المشهورة؛ ذلك أنّ الأسلوب في كلتا القصيدتين متشابهٌ إلى أبعد الحدود، وإلا فبما نفسّر أنّ الأمير لم يجد لقصيدته عِنوانا إلا أنْ يعنونها: (بنا افتخر الزمان)، ولنا أنْ نحمّل هذا العنوان من الدلالات والمعاني القويّة ما نشاء.

(لنا الفخر العميم)؛ كان يكفي أن يقول: لنا الفخر؛ ذلك أنّ التقديم جاء هنا لغرض التّخصيص، وكأنه لا أحد له حقّ الافتخار إلاّهُ، وما اكتفى بالفخر فخرا، بل أراده فخرا عميما، يعمّ جميع المناحي وشتّى النّواحي، ثمّ يؤكّد ويفصّل هذا الأمر وذاك الشّأن، بتوكيدٍ معنوي، فجاءت (كلّ) التوكيدية موكّدةً ما قبلها مستغرقة في ما بعدها، مقرونة بالباء الزمنية والمكانية، واجتاحت مع الأمير كلّ (عصرٍ ومصرٍ)، فكان له الفخر على طول الزمان، وعلى امتداد المكان، وجاء الزمان (عصرٍ)، والمكان (مصر) نكرتين دالتين على جميع وحداتهما وأجزائهما، ذلك أنّ كلّ عصرٍ على حِدةٍ، دونما استثناء عصر وكلّ مصرٍ على حدة، دونما إغفال مصر، قد امتلك فيه الأمير حقّ الافتخار، فأذعنت العصور له والأمصار، وأعطته حقّ الافتخار، وليردف الأمير بعد ذلك توكيدا آخر، يزيل به الشّكّ، وينفي به الرّيب، ويبعد به الحيرة: (هل بهذا ما يُقالُ؟) سؤالٌ ينفي به كلّ سؤال، وتعجّبٌ يقطع به كلّ تعجُّب، وكأنّي بالأمير يقول: هذا أمرٌ بَدَهِيّ، فكيف بعاقل أنْ يسأل، وبلبيب أنْ يتعجّب، وبفاهم أنْ يتحيّر.

رفعنا ثوبنا عن كلّ لؤمٍ *** فأقوالي تصدّقُها الفِعالُ

يفتخر بالفعل الماضي، وكأنّ الكرامة التي تحدّث عنها، وتعفّفه عن كل لؤم وساقطة أمرٌ مقطوع في حدوثه، ومجزوم في وقوعه، فالرفع قد وقع ولا سبيل إلى تغييره أو تحويره وقد بلغ الفخر به نصابه، فتعفّف الثّوب

قبل الجسم عن كلّ لؤم، ناهيك عمّا دلّته لفظة (كلّ) ولفظة (لؤم) النّكرتين، فقد سبق الحديث عن دلالة النكرات.

وأمّا في الشّطر الثّاني: (فأقوالي تصدّقُها الفِعالُ)؛ فكان الجمع في القول على وزن أفعال، وهو جمع أقل من وزن فِعال التي وزن بها الأمير الأفعال المصدّقة أقواله، وكأنّه أراد أنْ يقول إنّ الفِعال أكثر من الأقوال، وإنّ كلّ قولٍ تصدّقه أفعال لا فعل واحد.

ولو ندري بماء المزن يزري *** لكان لنا على الظّمأِ احتمالُ

حرف (لو) الشرطية التي يمتنع جوابها لامتناع جملة شرطها الأولى، يوكدّ –أي حرف الشرط لو– أنّ الأمير وقومه بلغ بهم رفض الذّل، وإباء الضّيم، ما جعلهم قد يقبلون بالعطش الشّديد، والرَّمَض العسير، إذا ما كان قطر الغمام بالذلّ والازدراء نازلا، بيد أنّ الصّورة وما تحمله من مبالغة –هي في الغالب مقصودة– تصوّر عِزَّة، وترسم إباءً عُرف بهما الأمير وتمثلهما في الحروب بسيفه البتار، وجيشه الجرار، وفي شِعره بفخره القاطع، وأفكاره القوية لتكون هذه القصيدة وغيرها من هاتيك القصائد التي جال الأمير فيها وصال، وغيرها الآخر من القصائد الأبيّة، والمقطوعات الحرّة، مَعْلَمًا تاريخيا، وشاهدا حيّا على أنّ الشّعب الجزائري قطُّ لم يرضخ للذّخيل أو العميل.

كما نرى الأمير في هاته المقطوعة اللاميّة اختار رويّها لاما مرفوعة مضمومة لتحكي لنا اللام وضمّتها شدّة إباء الأمير، وعزّته، فلا غرو أنّه اختار الرّفع والعلوّ، على النّصب والانكسار، منحازا إلى إيقاع البحر الوافر، الذي رآه مناسبا موضوعه، وهلمّ جرا من بعض الدلالات، والإيحاءات والمعاني التي لم نقف عليها، أو نشر إليها، والتي هي أكثر من أنْ تحصى.

وبعد أن عشنا مع مقطوعة الأمير عبد القادر الشعريّة في الفصيح، فإنّ الشّعر الشّعبيّ كذلك لم يتخلّف عن دوره الثّوري المقاوماتيّ، فبعد ثورة الأمير عبد القادر، برزت ثورة الزّعاطشة 1849، وكان زعيمها المعروف بوزيان، فقد نظّم الشّاعر الشّعبيّ محمّد بن عمر قصيدة في مدح بوزيان قبل نهاية المعركة، وبعد أن انتهت المعركة علّقت القوات الفرنسيّة رأس بوزيان على مدخل المعسكر، أنشد محمّد بن عمر القصيدة في محفل قرويّ سنة 1851، فاعتقله الفرنسيون وسجنوه في بسكرة بتهمة تهديد الأمن العام، ممّا يدلّ على تأثّر الشّعر بالثّورة وتأثيره فيها وعلى الثّوار خاصّة والشّعب عامّة، وربّما غضب الفرنسيون من تشبيه الشّاعر رأس بوزيان بالمهدي المنتظر، وتلقيبه (باي الصّحراء)[3].

وكان لكلّ ثورة شعراؤها الذي يرافقون قادتها، مدحًا وشحذًا للهمم، من ذلك ثورات أولاد سيدي الشّيخ، فقد خلّد الشّاعر أحمد بن دالة العامري معركة الشّلالة سنة 1864، جاء في قصيدته:

(يالْحاضرين عاودو لَخْبارْ واشْ صْرا * على نهار الشّلالة في الزّمان معدودْ)

(سَعد النّهار الشّلالة خرجتْ المحلّة * جاتْ ثَمَّ الخَيّالة ما بقى مجحودْ)[4]

إنّ أهل الكلمة اضطهدوا من الاحتلال إلى الاستقلال، دخل مفدي زكريا السّجن ثمّ هرب منه ورضي بالمنفى، وكاد يصمت محمد العيد آل خليفة وأحمد سحنون عن الشّعر؛ لأنّ كليهما كان خاضعا للقمع، فالأوّل تحت الإقامة الجبريّة، والثّاني داخل غياهب السّجنّ، واغتيل حوحو وبوشامة العقون ومحمّد الأمين العمودي والزّاهري وغيرهم[5].

4- الرّواية تعضُدَ الشّعرَ في مرافقة الثّورة:

تعبّر الرّواية عن تفاصيل واقعيّة أو خياليّة يعيشها الإنسان، فينقلها في ثوب أدبيّ شائق للمتلقّي. والروائي الجزائريّ لم يستطع إلا أن يصطبغ بلون الثّورة الجزائريّة، فأعاد تسجيلَ أحداثها روائيا أدبيًّا.

إنّ الثّورة الجزائريّة، بما حملته من أحداث متنوعة وكثيرة، صارت مادّة زخمة ثريّة للرّواية الجزائرية، فراحت الرواية تراوح بين الرّمزية الأدبيّة الخياليّة، والواقعيّة المشهديّة التّاريخيّة، تهرب من جفاف الواقع إلى مُتنفّس التّشويق والتّخييل، ومن هلاميّة الخيال إلى مشهديّة وصورانيّة الواقع. فـ"التاريخ لا يُكتب مرة واحدة، فالحدث يحدث مرة ولكن يُكتب عنه مرات، وهذا ما فعلته الرواية الجزائرية بعد الاستقلال، أعادت كتابة التاريخ في فضاء الخيال"[6]. وقد بدأ الجانب الثّوريّ في الرواية قويا بعد الاستقلال، ثمّ ما لبثت الرّاوية تتخلّى شيئا فشيئا عن التلبّس بالرّوح الثّوريّة.

5- اللّغة العربيّة عدوًّا لفرنسا:

لم تكتفي فرنسا بجعل اللّغة العربيّة لغةً أجنبيّة في الجزائر واعتماد اللّغة الفرنسيّة لغةً رسمية، وإنّما اتخذت منها عدوا، تحاربه كما تحارب (الثّوّار والفلّاقة)، وتطاردها في أماكنها الشّرعية. كما حاربت تعليم اللّغة العربيّة في المدارس خاصّةً، لكنّ الزّوايا والمدارس القرآنيّة واصلت في القرى والمداشر تعليم العربيّة حفاظًا على الهويّة الوطنيّة الجزائريّة، وقد أدركت فرنسا شدّة ارتباط اللّغة العربيّة بالدّين الإسلاميّ؛ الذي يعدّ الدّافع الرّوحيّ الأوّل للجهاد والمقاومة.

ولكن هذا لا يعني استغناء الفرنسيين عن اللّغة العربيّة، لقد فهموا أنّ حاجاتهم الإداريّة والاجتماعيّة لا تتمّ إلا باستعمال هذه اللّغة؛ لذا قاموا بمحاولتين: الأولى إهمال تعليم اللّغة العربيّة وتدريسها في المدارس القديمة، وذلك بقطع مصادر الوقف عنها، والثّانية هي الاكتفاء بتدريس الدّارجة لضبّاط الجيش والرّاغبين في العمل الإداريّ من الفرنسيين. وأبقوا للمسلمين حفظ القرآن العظيم في الكتاتيب، مجرّدًا عن العلوم الشّرعيّة الأخرى، التي تساعد على فهمه وتفسيره، فبقي القرآن في الصّدور دون الكتب، ودون العمل به في الحياة العامّة، ولم تبق العربيّة والعلوم الأخرى إلا في بعض الزّوايا[7].

لقد ظلّت العربيّة الفصحى تقاوم في بعض الزّوايا التي سُمح لها بالنّشاط، مثل بعض زوايا زواوة، وزاوية الهامل، وزاوية طولقة، وكذلك المساجد بدورها حافظت على الفصحى من خلال خُطب الجمعة، وبعض الدّروس العامّة، وكانت هذه الدّروس في غالبيتها دينيّة، إلا أنّها اشتملت على علوم أخرى أيضا كالنّحو والأدب والبلاغة[8].

لقد وقف الجزائريون موقف الرافض من سياسة الفرنسة التي قام بها الاحتلال الفرنسيّ الغاشم منذ أن داست أقدامه هذه الأرض الطيّبة، وقد سقطت أرواح مثقفين ومعلمين كثيرين، ومن لم يمت منهم فقد نُفي بعيد عن وطنه، ما كان ذنبهم إلا أنّهم دافعوا عن اللّغة العربيّة، وأنّهم لم يرتضوا فصل هذا الشّعب عن لغته.

فمنذ نشوء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 نادت بتعليم العربيّة، وجعلتها من بنود برنامجها، وكلّ خطب رجالات الجمعية وكتاباتهم وجرائدهم تشهد بذلك، وفي سنة 1933 نادى حزب نجم شمال إفريقيّة بتعلّم اللّغة العربيّة إجباريا، وقد نصّت المادّة الثّالثة من برنامجه أنّ اللّغة الرّسميّة التي ستكون للبلاد هي اللّغة العربيّة. ونادى المؤتمر العام لحزب الشّعب الجزائري سنة 1938 بإصدار مرسوم يجعل تعلّم اللّغة العربيّة إجباريا في جميع المستويات. وفي (البيان الجزائريّ) الذي صاغه فرحات عبّاس باسم الشّعب الجزائريّ إلى الحلفاء سنة 1943، وردت المطالبة بالاعتراف باللّغة العربيّة لغةً رسميّة على قدم المساواة مع اللّغة الفرنسيّة[9].

وانبرى للحملة الفرنسية ضدّ العربيّة رجال أشاوس، منهم البشير الإبراهيميّ الذي نافح بما لا يُشقّ له غبارٌ، فازدهت العربيّة عروسًا، وتزيّنت في مقالاته وخطبه، وما (البصائر) منّا ببعيد، شاهدةٌ على ذلك. دون أن ننسى جهود الشّيخ عبد الحميد بن باديس والشّيخ أبي يعلى الزّواوي وغيرهما.

لقد كان الإبراهيميّ، على وجه التّمثيل، أديبا فذًّا، قلّما أنجبت الجزائر مثله في العقود الأخيرة، بل كان وحيد زمانه وقتذاك، ذا حافظة نادرة، محبّا للأدب، حفظ دواوين الشّعراء ومتون اللّغة، حتّى بهر معاصريه في المشرق والمغرب، وظهرت الفصاحةُ على لسانه في ثوب بليغ نادر ماتع مميّز، لم يبلغ شأوه من معاصريه أحد. كان مقاوما بلسانه وبلاغته، فترك لنا مقالات ونصوصا تعدّ إرثا وكنزا ثمينا.

6- على سبيل الختام:

مما لا يُختلف فيه أنّ ثورة الجزائر من أعظم الثورات التي عاشتها الشعوب في القرون الأخيرة، تآلف فيها الشعب الجزائري بمختلف أطيافه لمقاومة المحتل الظالم على جميع الميادين. والثورة مهما كانت قوية شرسة لا يمكن أن تنجح إذا اقتصرت على السلاح فقط، وإنّما وجب أنْ يُرافق السّلاحَ جيوش أخرى مختلفة من المقاومة، في مقدّمتها القلم الذي يدعم صوتها أثناء قيامها، ويخلّد ذِكرها بعد انتهائها.

فأصبحت الثورات اليوم تُقاسُ قوّتُها بمدى تخليدِ أبنائِها لتاريخها، وتأريخهم لأمجاد أبطالها. والثورة الجزائرية محظوظة بأبنائها، الذين ما بخلوا أبدا يخلّدونها في جميع الأندية والميادين والمحافل العالمية، بجميع أنواع الكتابة: تأريخا، وشهاداتٍ، ومذكّراتٍ، وأشعارا...

لقد بان ما للكلمة من قدر ومقام جليل كبير إبان الثورة التحريريّة المجيدة (1830- 1962)، لقد دفع المجاهد الجزائريّ روحه جراء حروفٍ خرجت من فيه، لم يقبل الضّيم على شعبه، ولم يرتضِ الذلَّ خوفا فيصمُتَ، بل راح صادِحا في الفيافي شاعرا وكاتبا وداعيا ومنتصرا بلسانه وسِنانِه، وهي الكلمة اليوم تعيش بيننا خالدةً باقية

شاهدة، فبعد أن قاومت أثناء النّار، صارت مخلِّدَةً بعد الانتصار، صارت تاريخًا ينقش ذاكرة الأجيال، ويرسُمُ لهم طريق النّصر في البناء، بعد أن خطّ أجدادهم طريق النّصر على الأعداء.

الهوامش:

[1] – أبو الحسن علي الحسني النّدوي، ربّانيّة لا رهبانيّة، دار الفتح، بيروت، ط3، 1978م، ص120.

[2] – المرجع نفسه، ص126.

[3] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1998م، ج8، ص324.

[4] – المصدر نفسه، ج8، ص325.

[5] – المصدر نفسه، ج10، ص489، 490.

[6] – أسماء رمضان، الأدب الجزائري رحلةٌ طويلة من تجسيد النّضال والثّورة، موقع: نون بوست، 2019.

[7] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج8، ص13، 14.

[8] – المصدر نفسه، ج8، ص15، 16.

[9] – المصدر نفسه، ج8، ص25، 26.

قائمة المراجع:

1– أبو الحسن علي الحسني النّدوي، ربّانيّة لا رهبانيّة، دار الفتح، بيروت، ط3، 1978م.

2– أسماء رمضان، الأدب الجزائري رحلةٌ طويلة من تجسيد النّضال والثّورة، موقع: نون بوست، 2019.

3– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1998م.